رحلة فى الديار المصرية فى القرن الثامن عشر (الهندى) :

النحلة النصرية

فى الرحلة المصرية

لمصطفى البكرى الصديقى

للأستاذ أحمد سامح الخالدى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

فى يوم السبت سابع جمادى الثانية ، ودّع القرافة وتوجّه لزيارة سلطان الرجال أحمد المكنّى البدوى العلوى ، صحبة الشيخ محمد الحفناوى وأخيه الشيخ يوسف ، والشيخ حسن ، والسيد عبد الله السلفيتى نجل المرحوم السيد حسن ، والأخ إبراهيم الحرستانى المعروف بالبلاصى ، وما زال يسير إلى أن عدّى فى المعدية إلى قرية المرحوم وبات ليلة ، وجاء السرّاق فى الليل ، يسطون على الخيل نخيب الله مسعاهم ، وسار فى الصباح مع إخوانه إلى قرية (مليج) وزار سيدى على الليجى صاحب المقام وتمثّل بالجامع الذى عمره إسميل بك ابن إبراز ونزل دار صديقه الحاج عمر ، ثم استمرّ فى السير إلى أن لاحت قبة السيد المزور ، فنزل فى البلد جوار سيدى أحمد ، وقرأ الفاتحة ، وكان معه الشيخ محمد الأحول الحنفى ، وبقية الرفاق ، وورد عليه المحب الشيخ محمد الاسقاطى وأخبره أن والده قادم للزيارة مع جماعة ، واستفسر عن نية الشيخ للتوجّه إلى دمياط وطلب أن يرافقه. وفى الصباح سار لزيارة سيدى عبدالوهاب الجوهرى، صاحب المقام وأخبر أن جناب الشيخ محمد البدرى بن الميت فى قريته فتوجه إليه واجتمع عليه وطلب أن يرافقه الشيخ فى المعدية إلى دمياط ، فقال له إنه وعد بذلك الشيخ محمد الاسقاطى، فقال إذن نزور فى البر قبل الوصول إلى البحر جناب الشيخ محمد الشناوى ، فأجابه لذلك . وعاد إلى المنزل فوفد عليه العالم والد الشيخ محمد جناب الشيخ أحمد الاسقاطى، وأكّد كلام ولده ، ثم ودّعه ، وعاد عند الظهر إلى الجامع الأحمدى ، وبعد العصر ، حضر لعنده فاضل ، يدرّس فى الجامع قريباً من

سار عبد العزيز فى الحكم سيراً لم يسره سوى ابن عبد العزيز
عمّنا حكمه بعدل بسيط شامل للورى ولفظ وجيز

وكان معاصروه من العلماء يضمرون له أعظم الإجلال ، وقد رأينا موقف الحافظ المنذرى منه ، أما ابن الحاجب فكان شديد الإعجاب به ، متفقاً معه فى لوم الصالح إسميل الذى أخرجهما معاً من دمشق ، وكان ابن الحاجب يرى العز أفقه من الغزالى . وكان عز الدين وأبو الحسن الشاذلى يعجب كل منهما بصاحبه ، يحضر العز عند الشيخ ويسمع كلامه فى الحقيقة ويعظمه ، وقال أبو الحسن الشاذلى : قيل لى : ما على وجه الأرض مجلس فى الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وما على وجه الأرض مجلس فى الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكى الدين عبد العظيم ، وما على وجه الأرض مجلس فى علم الحقائق أبهى من مجلسك . ووضع القاضى عز الدين المكارى مصنفاً فى سيرته. كما ترجم له السبكى ترجمة كلها إعجاب به بدأها بقوله : شيخ الإسلام والمسلمين ، وأحد الأئمة الأعلام ، سلطان العلماء ، وإمام عصره بلا مدافعة ، القائم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى زمانه ، المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها ، العارف بمقاصدها ، لم ير مثل نفسه ، ولا رأى من رآه مثله علماً وورعاً وقياماً فى الحق وشجاعة وقوة جنان .

(حلوان الحمامات) أحمد أحمد بروى

مدرس بكلية دار العلوم — بجامعة فؤاد الأول

مراجعه :

١ — فوات الوفيات حـ ١ ص ٢٨٧
٢ — النجوم الزاهرة حـ ٦ و حـ ٧ فى مواضع متفرقة
٣ — طبقات الشافعية للسبكى حـ ٥ ص ٨٠
٤ — ذيل الروضتين ص ١٧٠ و ٢٠٨ و ٢١٦
٥ — تاريخ القضاء فى الإسلام لغرتوس ص ١٩٣
٦ — حسن المحاضرة حـ ١ ص ١٤١ وحـ ٢ ص ٣٨ و ١٠٩ و ١١٠
٧ — خطط الشام حـ ٤ ص ٤٧ و ١١٠
٨ — السلوك للمقريزى حـ ١ ص ٣١٢ و ٣٥٤ و ٤١٦
٩ — المختصر فى أخبار البشر حـ ٣ ص ١٦٩ و ١٩٦ و ٢١٥
١٠ — نهاية الأدب حـ ٢٨ ص ١٨
١١ — بدائع الزهور ، لابن إياس حـ ١ ص ٩٤
١٢ — تاج التراجم ص ١٥١
١٣ — شذرات الذهب حـ ٥ ص ٣٠١
١٤ — كشف الظنون حـ ١ نهر ٢٢٠ و ٤٣٨ وحـ ٢ نهر ١٥٨٠
١٥ — كتبه .
١٦ — فهارس دار الكتب .
١٧ — معجم المطبوعات لسركيس حـ ١ نهر ١٦٤

الإمام ، وهو شريك الأخ الشيخ محمد على المرحوم جناب الشيخ أحمد الخليفي فدعاه لداره . وودّع الداعى بعد قيامه بأمر الضيافة فلما وصل فناء مسجد الشيخ ، رأى شاباً ممسكاً للشباك ، وهو يبكى والناس حوله يهدون الفواتح للسيد ، فاذا هو وليده ممسك مقيد ، فسأل الشيخ عن قصته ، فأخبر أنه سرق حمارة ، فقطن به ، فأنكر ، فأتى به إلى الشيخ لعله يتوب ، فوضع يده على الشباك ليحلف ، فأمسك الشيخ يده فتاب وبكى ، فلم يطلق إلا بعد ساعتين أو أكثر حتى شفع فيه جميع من حضر . وبات ليلته وجاءه الأخ محمد بما تيسر من الزاد ، وحضر الشيخ محمد الأسقاطى بالدواب فتوجّه معه إلى أن لحقوا بالشيخ محمد البديرى ، ونزل قريباً من زاوية الشناوى ، وما زالوا يسيرون حتى وصلوا المحلة الكبرى ، ونزل الشيخ فى وكالة الحرير ، وكان الشيخ أحمد الاسقاطى نزل عند محب قديم يقال له الحاج إبراهيم رضوان فأرسل ولده يستدعى الشيخ ، فذهب وبات عنده . وفى الصباح توجّه يوم الخميس إلى قرية (سمنود) وركب والشيخ أحمد فى قياسة حتى وصل (المنصورة) وقصد زيارة الشيخ عبد الله الرفاعى ، وبعد صلاة العشاء أقلع والريح غير مريح ، فوصل قبل دخول صلاة الجمعة إلى (شربين) وبعد الصلاة زار مقام سيدى شمس الدين محمد الشربينى . وسأله الشيخ يوسف الزين شقيق الشيخ محمد الحفناوى تخميس بيتين ففعل .

ولما وصل (فارس كور) توجّه إلى زيارة الشيخ أبى مدين الحدادى ، وكانت ليلة مولده والفقراء يسعون إليه من كل نادى ، فقرأ له الفاتحة وزار على أثره الشيخ إبراهيم الأحمدى ، فقدم له رز حليب فأكل منه لقيمات وصلى الصبح فى جامعها الكبير ، وتوجه إلى مدينة دمياط ودخلها مع الظهر يوم السبت . وزار أبا على الصياد ، ونزل فى خلوة شيخه الشيخ محمد البديرى التى فى جامع البحر للمدّة الوارد على الدوام ، وصار الشيخ يتردد عليه ، ودعاه لداره وأكرمه . وكذلك أضافه عنده الشيخ أحمد الاسقاطى ، وأوقفه على بعض ما له من الحوائش . وجاءه بعض الإخوان رسالة للسيوطى وطلب نظمها ، فنظمها فى مائة بيت . وسماها النظام (البسط التام ، فى نظم رسالة السيوطى الهمام) وأخبره الشيخ أحمد الاسقاطى أن عنده على الرسالة شرحاً ، وأوقفه شيخه البديرى على قصيدة امتدحه بها الشيخ عبد الغنى النابلسى[1] وطلب منه أن ينسج على منوالها فتردّد ثم فعل . وكان الشيخ البديرى لا يفطر إلا لديه ، ويصحب معه الفطور والقهوة ، ويجلس فى مؤانسته إلى الضحوة . ثم توجه به إلى زيارة الشيخ ضرغام ، فذهب فى قياسة وصحبه السيد أحمد الطرابلسى ، وخاله الحاج مصطفى وبعض الأحباب ، وبعد الزيارة دعاه لداره وأراه سبحة الشيخ الزطاوى ، وقال أن الشيخ أعطاه إياها غب الإجازة وأخبره بما سطره عنه فى (السيوف الحداد فى ترجمة سيدى محمد مراد النقشبندى) وسأله الأجازة فأجاب وذلك فى غرة رجب سنة ١١٣٣ ، وقد ذيلها بإمضائه ونسبه وهو : محمد بن محمد بن محمد بن أحمد البديرى[2] الدمياطى الشافعى الأشعرى الشاذلى النقشبندى .

وقصد زيارة الشيخ على السقا ، ثم زار سيدى الشيخ فتح ، ومر على الشيخ جمال الدين المجمى ، فقرأ له الفاتحة ، وحضر عند الشيخ فتح مجلس ذكر ، ثم ذهب إلى بستان السيد كمال النقيب سابقاً ومكث فيه إلى قبيل الغروب ، ثم رأى أنه ذكر سيدى إبراهيم المتبولى ، فأخبر بذلك الشيخ قاسم نجل الشيخ يوسف ، وقال له عن مراده فى زيارة السادة التبولية ، وبعض المقامات ، فزار جناب الشيخ محمد العصيفرانى وجناب سيدى أبى العباس الحربتى ، والشيخ الضيروطى وسيدى حسن الطويل ، وسيدى محمد الواجه له ، وزار سيدى محمد العياشى وأبا الطيب والشيخ محمد هارون والشيخ يوسف المغربى . وكان يخدم شيخه البديرى رجلاً اسمه صبح وكان بعض الناس يمازحه بقوله : بالله يا صبح لا تزرنى ، يا صبح بالله أنا ذخيلك ، وهذا موشح قديم فقال الشيخ :

حبى جفانى ، فطال ليلى ، وقد كوانى ، وهد حيلى ، ومذ سبانى ، بفرط ميل ، نادبت يا ليل بالثانى ادخل فانى ذخيلك . الخ .

وممن دعا الشيخ وكرر الدعوة صديقاه الحاج محمد والحاج مصطفى وهما خالا السيد أحمد الأدهمى ، وكان يصحبه فى البعض شيخه الشيخ البديرى . ثم إن الشيخ المذكور عزم أوائل رجب

---

(١) صاحب الرحلة المشهورة من دمشق إلى القدس ، القطب الكبير . زار القدس سنة (١١٠١ هـ)

(٢) جد آل البديرى فى القدس .

على التوجه إلى مصر لأن له عادة فى النزول أوائل الأشهر الثلاثة واقراء الحديث الشريف فتوجه فتألم الشيخ افراقه .

وكان قبل هـذا التاريخ اجتمع بالعالم الشيخ حسن الفتى الحنفـى ، وجاءه للخلوة ، ودعاه لداره ، فسر بالاجتماع به ، وممن اصطحب معه فى الخلوة الشيخ محمد الهنيدى .

كان الشيخ قد سمع وهو فى الديار الشامية أن دمياط فيها سلطان الناموس فلا ينام فيها إلا بناموسية فقال لما لم يجد ذلك :

وقد قيل للناموس فيها سلاطة ولم أر ما قد قيل فى جامع البحر
ويمكن أن البحر لما به ثوى وذاك ذكى الدين فر من البحر

وكان لحقه إلى القاهرة أخ اسمه عثمان ، وجاء من غير إذن من الشيخ ، فخالف المشورة ، وأمره الشيخ أن يركب من المنفر فى شيطية [1] ، فركب فى قياسة فأسرت دون غيرها وأخـذ إلى ماطية [2] ، فحزن قلب الشيخ عليه ، ولم يطق رد ما أوصله مولاه إليه ، ولم يسمه إلا الحوقلة ، ولوجيء به كعادتهم أحياناً إلى التنور ، لهرع أهله إلى شرائه من الأسر ، ولكان اشتراه الشيخ بالنقود ، ولكن لم يتم له ذلك .

وانشد صديقه السيد أحمد بن صالح الطرابلسى الأدهمى مصراع مواليا وطلب من الشيخ أن يضيف إليه وهو : بالله يا بدر خذ لى فى طرف عينك فقال الشيخ :

فإن مضناك يشكو سيدى بينك
ما فيك من شين غير الهجر يا حينك
لا أبعـــد الله ما بينى وما بينك

وانشد شطراً آخر وقال له أجز فانشد الشيخ :

بالله منيتى أرفق بهـــذا الصب
رشأ بحبك لقد صب الدامع صب
يهواك طفلاً رضيعاً يافعاً بل شب
وكلما شاخ حبـك فى حشاه شب

وأرسل الشيخ حسن إلى الشيخ زوادة لطيفة لما بلغه قرب سفره وكان ينتظر قدوم (البليك) فتعذر ذلك .

(١) من أسماء السفن التى جاء ذكرها فى الرحلة ، القياسة ، والبليك والشطية والمعدية .

(٢) يستدل من هذا أن القرصنة كانت شائعة حينذاك .

وجاء المشار إليه مصاحباً معه سنده فى حديث المصافحة وقال له : أردت أن أتحفك بهذه التحفة ، وصافحه وقال « صافحتك كما صافحنى شيخنا الشيخ أحمد البنا ، كما صافحه شيخه سيدى أحمد بن عجيل اليمنى فى منزله ، كما صافحه شيخه تاج الدين النقشبندى ، كما صافحه الشيخ عبد الرحمن الشهير بحاجى رمزى ، كما صافحه الشيخ محمود اسقرازى ، كما صافحه أبو سعيد الحبشى الصحابى ، كما صافحه سيد الأولين . وهـذا سند شيخنا البدرى ، كما هو مسطر فى ثبته مع زيادات فانتبه » وودعه مسروراً .

وكان قد وفد رجل طرابلسى استأجر [1] (شطية) مغفرة إلى البلاد فاجتمع به أصحابه السيد أحمد وأخواله وكلموه فى نزول الشيخ معه فأظهر القبول . ثم عزم الشيخ على التوجه إلى العزبة مع الرفاق وحضر لوداعه الشيخ أحمد الاسقاطى ، فاستجازه بمروياته فأجازه ، وبعد أن ودّع الإخوان توجه إلى العزبة ، وبات بها ليلة .

وفى الصباح تموقت (القياسة) حتى طلع الريح ، فلم يمكن المعدية أن تقطع العتبة فاحتاج أن ينام عند برج الشيخ محمد ،

وكان قد قصده للتنزه والتفرُّج مع شيخه البدرى ، ويقول الشيخ « وهذا البرج فيه بعض مدافع [2] ، ترهب العدو ، إذ الأمر الإلهى ماله مدافع ، ولقد تمنيت أن لو مكنت فبنيت أبراجاً عدة ، على سواحل البحر ، يكون فيها للثغور نجدة وعدة وعدة ، وليست إلا حماية الله هى الواقية ، وكفاية الله هى اللاقية ، وجماعة العزبة سندهم رهبة للعدو وفى الفرار رغبة ، فلا يستعمل على المراكب ، إلا كل مغربى متين السيوف راكب ، فإن لهم معرفة بالحرب ، وحب فى الطعن والضرب ، وبغض فى الكفرة اللئام ، واقتحام فى ميدان الاهوال العظام (كذا) فصمدنا البرج نهاراً ، وثبتنا لديه إلى أن زاد الفجر إسفاراً ، وقطعنا العتبة أول النهار ، والبحر ساكن ، والقلب بعون الرب راكن ، ووصلنا (الشيطية) ، وأجلست فى القمرة التحتية ، وأعددت نزولى فيها من الذنوب السوالف ، حتى جرى الدمع على الخدود والسوالف ، ولقد كنت أتطير من النزول فى المنفر ، لما أسمع من تماطيهم المنكسر ، ولما عرف مستأجر المركب قبطانه قينا ، أخذ يلاطفنا ويصافينا ، حتى أنه

(١) يستدل من هذا أن التجار كانوا يستأجرون هذه السفن الأجنبية

(٢) فى هذا ما يدلنا على الأستحكامات الدفاعية لدمياط فى ذلك العهد

أذاب ماء وسكرا ممزوجاً بماء الليمون ، وأتاني به فلم أقبله خوفاً من نجاسة الماعون ، فنادى المستأجر وأخبره بطهارته ، فأعلمه بعدم شربه ، ومن مهارته أمره أن يغسل آنية ، وأن يتعاطى تذويب السكر بيده علانية ، ففعل كما أمر وجاءني بها الريس ، وأظن اسمه عمر ، فشربت بعض شربي ، حيث طاب قلبي ، وصار يتلطف بي ، ويدعى ودي وحبي ، وأتبرى منه ومن وداده ؛ وفي غنية عن حبه وانقياده » .

ونام أول ليلة وهو يأمل سرعة الوصول إلى يافا ، فتراءى له في المنام أحد شيوخ دمشق الشام واسمه أحمد سراج ، ونشر أصابعه الخمس ، فاستفاق الشيخ مذعوراً ، وبان أن المراد الإقامة في البحر خمسة أيام ، ومكث الريح الريح أربعة أيام يهب ويستريح وقابل هو وإبراهيم البلاصي الحريثي الرسالة المرسومة « بالمنهل العذب السائغ لوراده ، في ذكر صلوات الطريق وأوراده » وقابل « الألفية في طريق السادة الصوفية » . وضاق الشيخ ذرعاً لطول الإقامة في البحر ، من أمر النجاسة ، فإنهم أي أهل المركب كانوا غارقين فيها حساً ومعنى ولأنهم لا يعرفون أنها من النجاسة .

وفي ليلة الخميس ويومه ، طالت كربة الشيخ ومن معه ، فتوسل بسيدي أحمد البدوي أن يسوق له صبيحة الجمعة « الريح الملائم ليخلص من القبطان وجنوده ، جنود الشيطان ، وجاءه القبطان يشكو قلة الماء ، وأقسم بدينه أن الماء لا يكفيه غير اليوم مع التدبير ، ولم يبق عنده إلا أواني الخمر . فاغتاظ الشيخ من كلامه وتأثر ، وقال المستأجر وكان هو الترجمان بينه وبين القبطان : إن الله سيسهل بالفرج وبزول الضيق ، فقال له قل له يأمر الركاب يجتمعوا ويدعوا الله عسى يجيب . فأجابه الشيخ قائلاً للترجمان قل له إن في هذا اليوم المبارك بعد الظهر ييسر ، يأتي الريح وندخل يافا قبل الغروب ولا أبات الليلة الداخلة إلا في يافا ذات الوجه النضير » . ففهم القبطان ذلك وسر ولم يقطع بقول الشيخ . ولما زالت الشمس هب النسيم ، ثم زاد على المعتاد حتى خال الشيخ (الشيطية) تطير في السير ، وخاف الشيخ من تقريع القبطان ، وستر الستار الكبير ، وفرش له فوق ثرته للتفرج على البحر ، وكشف البر عقيب العصر وزال الضيق ، وألقى المرساة ونزل الشيخ في (قياسة) صغيرة وبات في جامع البحر ليلة السبت وقد سر سروراً عظيماً . ورأى القافلة متوجهة إلى الديار ، فحمد الله على تسهيل قرب المزار . وبلغ الوطن(١) .

ولما استقر به المقام ورد عليه كتاب من الشيخ محمد البديري فلم يجب عليه إلا في بلاد الروم وأودعه في الرحلة الرومية ، وبعد ذلك أرسل كتاباً إلى مفتي تنر دمياط الشيخ حسن ، وآخر إلى الشيخ محمد الحفناوي ، ثم مرض الشيخ وامتد أمر سقامه نحو سبعة أشهر وأيام ، وفي هذه الأثناء جاءه كتاب من الشيخ محمد المذكور . وكانت والدة الشيخ وردت عليه للزيارة

ثم اقتضى أمر أوجب سفر الشيخ إلى حلب الشهباء ذات الخفر ، ولم يرد بداً من التوجه لأمر اقتضاه الحال فعزم على المسير بعد ما استخار الله ، وكان قبل ذلك بشهر ، قال له الدرويش يعقوب الهندي إن في نيته الذهاب إلى حلب فتنى الشيخ ذلك ، فقال له الهندي بل بعد ذهابك إليها ستتوجه إلى بلاد الروم ، فأجابه الشيخ ما الذي يصنع في بلاد الروم ولا غرض له فيها ؟ فقال له إنها بلدته ، ولما أراد السفر توجه معه إلى حلب ومنها فارقه إلى بغداد .

وتوجه بعد مدة إلى بلاد الروم وسطر ذلك في رحلة سماها (تفريق الهموم وتغريق الغموم في الرحلة إلى بلاد الروم) وأبقى الوالدة في داره في بيت المقدس ، وقد حزن على فراقها ولكنه رضخ لحكم الأقدار (انتهى) .

أحمد سامح الخالدي

(١) بيت المقدس .

الأستاذ محمود الخفيف

يقدم

أحمد عرابي

ثمنه ٥٠ قرش